

## البحث الثامن

### موت الذي مر على القرية وحماره مائة عام ثم بعثهما

جوابا لسؤال من السيد أحمد مرشد من غزة:

قال تعالى في سورة البقرة ٢٥٩: (أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر على حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لجما، فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير).

### ما قاله المفسرون في معنى هذه الآية

#### واعتراضي على تفاسيرهم

قال المفسرون يحتمل أن يكون الذي مر على القرية مؤمنا، ويحتمل أن يكون كافرا وعلى كل، فمعنى الآية أن الله تعالى قد أمات هذا المار عليها موتا جسميا مئة عام تحت شجرة، وأعمى الله عن جسمه الإنس والسباع والطير ثم أحياه بعد المائة وأن طعامه الذي كان من التين والعنب وغيره وشرابه من العصير وغيره لم يتغير طعمها ولا رائحتها طول هذه المدة وأن حماره مات وبلى لحمه وتفرقت أوصاله ولكن بقيت عظامه فأنبت الله عليها اللحم طريا ثم نفخ فيه الروح فإذا هو قائم ينهق انتهى ملخص كلامهم.

ولكن أقول أن كلام المفسرين هذا بعيد عن العقل، وغير متلائم مع معنى هذه الآيات لوجوه كثيرة:-

١. إن ذلك مخالف لسنة الله في الخلق.
٢. أنه لو مات بجسمه لما كان هناك معنى لسؤال الله له بقوله (كم لبثت) لأن الميت إذا صار حيا لا يمكنه أن يعلم مقدار مدة موته.
٣. أنه على هذا التفسير ماذا تكون الفائدة من أماته مائة عام مع أن إمامته يوما واحدا أو لحظة واحدة ثم إحياءه بعد ذلك يكون دليلا كافيا لإظهار قدرة الله تعالى على إحياءه الأموات إذا كان المراد منا ذلك ما يقول المفسرون.
٤. أنه على هذا التفسير لا يكون تلائم بين المدلول عليه أو المفرع عنه وهو قوله (بل لبثت مئة عام) وبين الدليل أو التفرع وهو قوله (فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه) أي لم يتغير. بل يكون الدليل قائما على ضد المدلول أو المفرع عنه فإن عدم تغير الطعام والشراب يقضي عقلا وعادة أن يكون دليلا على قصر مدة البث لا على طولها، أي أن تكون مدة اللبث يوما أو بعض يوم، لا مئة عام. حينئذ فكيف يتخذ عدم تغير الطعام دليلا على اللبث مئة عام. وكيف يكون تقريرا عليه حسب نص الآية.
٥. أنه على هذا التفسير لا يكون تلائم بين هذه الآيات بعضها مع بعض كما يظهر ذلك لمن يتأمل ويدقق.

### ما فهمه الأستاذ الإمام في هذه الآية

#### وبيان ضعفه

أما الأستاذ الإمام فقد قال في معنى هذه الآية ما نصه (فأماته الله مئة عام) أي ضرب على إذنيه، فمات مئة عام كنوم أهل الكهف ثم بعثه، وهذا الموت أو الضرب على الأذن هو المراد من الشق الثاني ن قوله تعالى في سورة الزمر ٤٢ (الله يتوفى

الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى) والبعث هو الإرسال فإذا كان هذا النوع من الموت يكون بتوفي النفس أي قبضها فزواله إنما يكون بإرسالها وبعثها انتهى.

أقول ولا يخفى ما في هذا التفسير من البعد أيضا:

أولا: لأن أكثر الاعتراضات المتقدمة الواردة على تفسير عبارة (فأماته) بالموت الجسماني وارد أيضا على تفسيرها بالنوم.

ثانيا: لأن الآية التي استدل بها الإمام وإن سمت النوم وفاة إلا أنها منعت من تسميته موتا حيث قالت (و التي لم تمت في منامها) وقالت (فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى) مما يدل على أن الوفاة أعم من الموت وأن النوم وإن سمي وفاة فلا يسمى موتا. وعليه وبمقتضى هذه الآية، يصح أيضا أن نفس (فأماته) بمعنى فأنامه نوم أهل الكهف كما يول الأستاذ الإمام. على أن النوم مئة عام أيضا كما هنا أو ثلاثمائة عام كما في الكهف أمر ليا يكاد أن يكون معقولا بالنسبة للأفراد والأشخاص.

### ما أفهمه في المراد من هذه الآيات

وفي معنى إماته الذي مر على القرية وحماره مائة عام ثم بعثها

وفي معنى كون الطعام والشراب لم يتسنه إلخ وأدلتى الصريحة على ما أقول

إنني أفهم في هذه الآية فهما آخر لعله يكون صحيحا معقولا وقريبا متلائما. وبيان ذلك أن قوله (فأماته الله مئة عام ثم بعثه) إنما هو تقرير على قوله ( أنى يحيي هذه الله بعد موتها) واستدلال عليه حسب سياق الآية. والتقرير والدليل يجب أن يكونا من نوع المدلول والمفرغ عليه حسب القواعد المقررة، فوجب أن يكون من نوع المدلول والمفرغ عليه حسب القواعد المقررة، فوجب أن يكون حينئذ معنى الإماتة والإحياء في العبارة الثانية التي هي فرع ودليل المتعلق بالذي مر على القرية إنما هو من نوع الإماتة والأحياء في العبارة الأولى المفرغ والمدلول عليها المتعلقة بالقرية، خصوصا وأن هاتين العبارتين قد وردتا في آية واحدة وموضوع واحد لغرض واحد، فيلزم أن يكون المعنى المراد منهما واحدا.

ولما كان المراد من إماتة القرية ثم إحيائها إنما هو أمر معنوي وهو خرابها وخروج أهلها منها، ثم إحيائها بأعمارها ورجوع أهلها عليها لزم أن يكون إماتة وإحياء المار بها الذي هو من أهلها وواحد من سكانها إنما هو أمر معنوي أيضا هو خروجه من قريته ووطنه وترك أرضه وسائر أملاكه وتشتتته في البلاد الأخرى بذل وفقر استعباد وتعاسة وشقاء ثم إحيائه برجوعه على وطنه وأرضه وتام حريته، وإلى عزة ومجده وكمال سعاده فيكون المعنى حينئذ أن هذا المار وهو العزيز حينما مر على قريته وهي بيت المقدس ووجدها خاوية على عروشها ليس بها أحد من قومه اليهود الذين سباهم نبوخذ نصر قال على سبيل التلهف والتشوق إلى عمارة القرية ورجوع أهلها عليها الذي هو واحد منهم (أنى يحيي هذه الله بعد موتها) أي في أي وقت نرجع إلى بلادنا وأوطاننا ونعمرها ونحيا فيها حياة السعادة والهناء والعز والاستقلال بعد هذا الموت والذل واضمحلال وقد عبر الله تعالى عن هذه الحالة بقوله (فأماته الله مئة عام ثم بعثه) أي أماته في هذا الذل والاستعباد والتشتت في البلاد مئة عام، ثم بعثه من هذا الموت بإرجاعه على الأوطان والتمتع بنعمة الاستقلال.

ومما يؤيد هذا المعنى أن المؤرخين ذكروا (أن عزرا الذي هو العزيز أحد ملوك بني إسرائيل قد أعاد بناء الهيكل وعمر القدس بعد مرور مئة سنة من خرابها على يد نبوخذ نصر) وعليه فيكون خرابها مئة سنة هي مدة موتها وأن إعادة عزرا بناءها وتوليها ملكها هو بعثه بعد موته تلك المدة التي قضاه مع بقية قومه في الغربة والاستعباد. فلا الموتين، وكلا الحياتين في الآية هو أمر واحد معنوي كما بيناه. وليس هناك مانع من أن يعيش عزرا في الحياة أكثر من مئة سنة فيشاهد ذلك كله.

ولما كان قول عزرا الذي مر على هذه القرية (أنى يحيي هذه الله بعد موتها) مستلزما لاستصعاب واستبعاد رجوعها إلى حالتها الأولى وعمرانها الأول لما شاهده من كثرة خرابها، ولما علمه من تشتت أهلها في أنحاء العالم، أراد الله تعالى أن يقنعه في ذلك بما هو معلوم له من حاله ومشاهد له في نسه فقال له (كم لبثت) أي كم لبثت في الحياة من عمرك أي كم عمرت فيها مضي.

والتعبير بهذا اللفظ عن هذا المعنى هو مل قوله تعالى (فقد لبثت فيكم عمرا من قبله) فلما سأله الله عما مضى من عمره ظن أنه سؤال عن مقداره وقيمه في نظر نفسه فقال له (لبثت يوما أو بعض يوم) أي أن كل ما مضى من عمري كأنه يوم أو بعض يوم في نظري لأنه مضى وفات وكل ما فات فقد مات فقال له (بل لبثت مئة عام) أي أنك في الحقيقة قد لبثت في هذه الحياة من العمر مئة عام من حيث العدد (فانظر) في كل عام من هذه الأعوام الكثيرة التي مضت (إلى طعامك وشرابك لم يتسنه) أي أنظر إلى طعامك الذي طعمته وشرابك الذي شربته طول هذه المدة فإنه لم يتغير في سنة ما من السنين عن الذي قبله من حيث المذاق والشكل والهيئة وغير ذلك. فإن التين ملا والعنب وسائر الفواكه والقمح مثلا والفل والعدس وسائر الحبوب وكل طعام تطعمه وشراب تشربه فإني أفنيه وأعيده كما كان في كل سنة وأميته وأحبيه كما هو في كل عام لم يتغير في سنة عن الأخرى في أي وصف من أوصافه، ولا في أي شكل من أشكاله حينئذ فكيف أعجز عن إعادة القرية إلى حالتها الأولى بأعمارها وإقامة صروحها وعن إحيائها بارجاع أهلها إليها. وهذا استدلال ظاهر قوي لأنه استدلال بما يراه ويشاهده الإنسان في كل عام من عمره على شيء قد لا يحصل في عمره وهو إعادة قرية بعد خرابها وإحياء أمة بعد موتها فالله تعالى أراد أن يطمئن هذا المار بأن هذه القرية لا بد وأن يعيدها تماما كما كانت عليه من قبل كما يعيد الطعام والشراب في كل سنة إلى ما كان عليه من قبل، وقد حصل ذلك فعلا فقد عادة القدس بعد خرابها وبعد سبي أهلها إلى مثل ما كانت عليه قبل السبي.

ويحتمل أن يكون معنى (لم يتسنه) أي لم يمض عليه سنة بل أقل وذلك كما يقل مثلا (هذا الورد يأتي مسانهة) أي سنة بعد سنة فإذا أردت أن تقيد أنه يأتي قبل مضي سنة تقول (هذا الورد لم يتسنه) أن لم يمض عليه سنة بل أقل. وأن يكون المراد من الطعام والشراب جنسه والمعنى حينئذ فانظر إلى طعامك الذي تطعم منه وشرابك الذي تشرب منه فإنه لم يتسنه أي لم يمض عليه سنة كاملة بعد فقدته وفراغه حتى أحبيه وأعيده مرة أخرى أي إنني أفني ذلك وأعيده وأميته وأحبيه في أقل من سنة كما هي عادتي في ذلك دائما وأبدا. فكيف حينئذ أعجز عن إحياء هذه القرية بعد موتها في عدة سنين. واشتقاق لفظ (يتسنه) من السنة بمعنى العام معلوم في اللغة كما يقال استأجرت هذا المكان مسانهة أو مشاهرة أي سنة سنة وشهرا شهرا فمعنى (لم يتسنه) أي لم يبع سنة أي لم يمض على وجود سنة.

وعلى تفسيرنا هذا يظهر ظهورا واضحا وجه الاستدلال والتفريغ بقوله (فانظر على طعامك وشرابك لم يتسنه) بكلام معنى لفظ (يتسنه) على إحياء وإعادة القرية مرة أخرى بخلافه على تفسير المفسرين فإنه لا يظهر ذلك أبدا؛ لأنهم فرغوا على لبثه مئة عام، واللبث مائة عام لا يصح أن يفرغ عليه عدم تغير طعامه وشرابه، بل بالعكس أي إنما يفرغ عليه تغير الطعام والشراب، لا عد تغيره.

ومعنى قوله تعالى (وانظر إلى حمارك) أي انظر إلى حمارك الذي هو حيوان، كما نظرت إلى طعامك الذي هو نبات، أي فكما أن النبات الذي هو طعام بيمته الله ويحييه، فكذلك الحيوان: فالمراد جنس الحمار، وإنما خص الحمار بالذكر لأنه كان راكبا عليه في سفره هذا والمسافر لا يكون معه عادة سوى مأكولة ومشروبة ومركوبة، وهي ما عبر عنها بطعامه وشرابه وحماره.

ثم أراد تعالى أن يستدل على ذلك بطريقة أخرى أدل وأقوى مما سبق فقال (وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما) أي أنظر كيف ننشذ العظام وننميتها ونقويها ونصلبها تدريجا ثم نكسوها لحما في الأرحام شأننا دائما في كل حيوان كما تعلم أنت وغيرك ذلك. أي مادمت تعلم أيها المار على هذه القرية الخاوية على عروشها أن الله تعالى يعيد الطعام والشراب في كل سنة وأنه يحيي الحيوان وينشذ العظام دائما. فكيف تستبعد عليه أن يحيي هذه القرية وأن يحييك معها بارجاعك إليها.

ومما تقدم يظهر لك أيها القارئ أن المراد من قوله تعالى (فأماته الله مئة عام ثم بعثه) أي أماته في الغربية عن الأوطان وفي الذل والهوان مئة عام، ثم بعثه إلى قريته وأحياه في نعمته. وأن المراد من قوله تعالى (كم لبثت) أي كم لبثت من العمر في الحياة، لا كم لبثت في الموت الجثمانى كما يقول المفسرون.

هذا ما أراه تفسيراً لهذه الآيات إذا اعتبرنا أن المار كان مؤمنا وهو العزيز.

وأما إذا اعتبرناه كافرا فإني أفسر هذه الآيات كما يلي (فأماته الله مئة عام ثم بعثه) أي أماته في الكفر والجهل والظلال وإتباع الشهوات وتعاطي الملذات مئة عام من عمره ثم بعثه بعدها وأحياه بالإيمان وصالح الأعمال وبالعلم والتقوى والهداية إلى

الطريق الأقوم الأقوى. (قال كم لبثت) أي كم مكثت وأقمت من الزمن في هذا الموت وفي هذه الشهوات وهذه الملاهي والملذات (قال لبثت يوما أو بعض يوم) أي مدة كأنها يوم أو بعض يوم لأنها مضت في سرور اللذات ونعيم المسرات. وهذا على حد قول القائل (سنة السرور سنة وسنة الهموم سنة) قال قال (بل لبثت مئة عام) أي أنك بالحقيقة قد لبثت في موتك هذا وفي ملذاتك وأهوائك وشهواتك مئة عام من حيث العدد كما تعلم ذلك وإن كنت تعدها يوما أو بعض يوم في نظرك. ومع ذلك فقد بعثتك وأحييتك بعد هذه المدة الطويلة، افتستبعد وتستصعب بعد ذلك وبعد مشاهدتك لنفسك وإطلاعك على حقيقة أمرك أحبي هذه القرية وأهلها من جهلها وضلالها أو فقرها وضحكها وذلها واستعبادها أو من فساد أمرها وسوء تصرف أهلها أو من خراب بيوتها، وقحل مزروعاتها وتلف أشجارها إلى غير ذلك من أنواع الموتات المعنوية كما في قوله تعالى (وأوحينا به بلدة ميتا) وقول (فسقناه إلى بلد ميت) وغير ذلك من الآيات الكثيرة في هذا المعنى وأيضا على حد قول القائل:

ليس من مات فاستراح بميت إما الميت ميت الأحياء

إنما الميت من يعيش كئيبا كاسفا باله قليل الرجاء

فالمعنى: لا تستنكر ولا تستصعب أيها المار على هذه القرية، ولا تستهجن ولا تستبعد أي أحييها بعد موتها الذي تراه وتشاهده مهما طال مدة هذا الموت بل لا بد من إحيائها بعمارتها وإخصاب زرعها وإنماء أشجارها وإصلاح أحوالها أو بإرجاع أهلها إليها وتكثيرهم وإغنائهم وتعليمهم وإعزازهم وهدايتهم وإصلاحهم بعد فسادهم أي وإذا كنت وأنت فرد واحد قصير العمر بالنسبة للأمة والقرية قد اعتبرت المئة عام كأنها يوم أو بعض يوم فكيف تستبعد ذلك على القرية والأمة بأجمعها وهي طويلة العمر بالنسبة إليك فقياسا على إحيائك بعد مئة عام قضيتها في موت الكفر والجهل وهلاك الشهوة والهوى فإن بعث وإحياء هذه القرية مهما طال مدة موتها في مثل ذلك هو أمر يسير وهين علينا لا بعد فيه ولا استنكار، وقد تقدم لك أن مما يدل على أن المراد من أماتة وإحياء الذي مر على القرية هو الإماتة والأحياء المعنويان كون هذا المعنى بعينه هو المراد قطعاً من إحياء القرية بعد موتها المذكور في صدور هذه الآية حيث عبر تعالى عن كونها خاوية على عروشها بالموت وعن كونها أصبحت غير خاوية بالحياة حيث قال (أنى يحيي هذه الله بعد موتها) فيلزم أن يكون المعنى المراد في المثال والممثل ف واحدا وإلا لما صح أن يكون مثالا له إذا كان معناهما متغايرين، كما لا يصح أن يكون دليلا عليه. والآية قد جعلت إماتة وإحياء المار على القرية مثالا ودليلا على أحياء جميع القرية وجميع أهلها تمثيلا واستدلالا على الشيء ببعض أفرادهِ وجزئياته كما هو العادة في الاستدلال.

ومما هو صريح في أن المراد من أحياء هذه القرية وإماتتها هو إحياء أهلها اليهود حياة معنوية بعد موتهم موتا معنويا قوله تعالى خطابا لنفس اليهود (ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون) فإن هذه الآية صريحة تمام الصراحة فيما نقول.

ومعنى قوله تعالى (ولنجعلك آية للناس) على اعتبار أن المار على القرية مؤمن. أي نجعلك في إمامتك بالثبوت والذل والهوان، والاستعباد والفقر والبعد عن الأوطان، ثم بإحيائك في العز والهناء والسعادة، وبالرجوع إلى الأوطان، مع الاستقلال والسادة آية للناس ودليلا لهم على وجوب الاقتداء بك في وجوب تلمس الحياة السعيدة وسلوك السبل الرشيدة.

ومعناها على اعتبار أن المار كافر أي نجعلك في إمامتك بالكفر والفسوق والعصيان ثم بإحيائك بالهداية والإطاعة والإيمان آية للناس ودليلا لهم على وجوب إتباعك فيما هو أقوم وأقوى، وفيما هو أقرب للنجاة والتقوى.

ومعنى قوله تعالى (فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير) أي فما ظهر وتبين له الأمر عيانا برجوعه إلى وطنه بالفعل ومشاهدته قريته حية كما كانت أولا (قال أعلم أن الله على كل شيء قدير) حيث أحياني وأحيا قريتي بالفعل وبعثني وإياها بعد أن أماتنا مئة عام. هذا ما افهمه في تفسير هذه الآيات التي تعد بحسب تفسير المفسرين من المشكلات وعلى كل فاشه أعلم بمراه.